

نور وهّاج

قصة سمعتها في صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى
بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إليك في بساطتها كما وعيتها
منذ سنين .

صاحبها الأوحـد ، غطريف من غطاريف الريف
الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ،
فما فتى بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه في كل
يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلّ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لا يصرف
عنه أحداً منهم إلا عامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .
لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ،
تداول الألسن اسمه في أحاديثها ، حتى عرفتة القرى النائية ،
في أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها
من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدي إليها في خضم
الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى في رداءه
 طيف المنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً
 ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة
 الأداء ، فيشهدك كل يوم جدثاً رطباً جديداً ، تنضم جنباة
 على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً في مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن
 والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع
 الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجه شاحب مصفر ،
 وصدر يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء
 لصدوره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحن أجله ، حتى صحا صحوة
 الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم متلهم الصوت :
 اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقرائى المحاويج ؟ !
 ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى
 ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء
 نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطريفنا الراحل ، خدين لازمه منذ الطفولة الباكرة ،
إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج
ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .

لم يكن بينهما سر مطوى ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض
جعبته لصاحبه في مصارحة وصدق .

وجلس الحدين في مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيه
التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة اللاحية :
واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ،
وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب
والمرح ، وفي يد كل منهما قطعة من الخاوى يحشو بها فمه ،
والأخذان من حولهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .
وما يعتم الناقوس أن يدق دقات معلومات ، هي إشارة منه إلى
بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث
التلاميذ أن يتنظموا في سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .
وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك في إثرها ذلك
الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، في نظام وخشوع .
ويمتاز يوم الاثنين في هذه المدرسة على غيره من أيام
الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذي تجمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ،
تبذل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تريب ، وليس
على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، في يده سفظ
مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتجود .
وكانت التبرعات تجمع عادة ، في درس الدين ، فما إن
تسفر عمامة الشيخ « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر
أوامره بجباية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ،
بالسفظ يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ،
يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة
مليات ، هي فريضته التي آلى على نفسه أن يؤديها في الأسبوع
بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلاً يحتذى . وسرعان ما يصر
النقود في منديل مخطط عريض يحكم عقده ، ويستوعبه صدر قبائه
في عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة في نشطة ، وبأسطرة « سيدنا
الشيخ » على أيدي المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، وواع بالخير ،
مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، قصارى همه حض
الناس على تقى ومصلاح .

منطقه في ذلك هو منطق الدين الحنيف ، إذ لا سعادة في مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا في نفقات لاهوهم ، ليقدّموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كي يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقمت السيارة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً في عظاته حتى يختتمها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنه بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبي يخلو بالشيخ « خير الله » ، في غير أوقات الدرس ، يسأله في أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما يخل عليه الشيخ بشرح ولا ضمن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبي منزلة الفهم والاقتناع .

على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبي في وقفة مع الشيخ :

بني الإسلام على خمس ، فأيهما أفضل عند الله وأمثل ؟
فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

— أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

— الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن

لا تنس الزكاة ، فهي للفرد تطهير وللجموع مؤنة ومعونة
وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبي قائلاً فى تشوق وحماس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

— أقصر كبير هى ؟

— بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من

ألوان النعيم ، وأسباب المتاع . ، ما لا عين رأت ، ولا أذن

سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

— ولن هى ؟

— لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ،

ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبي من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ،

مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطايب النعم ،

وكأنها من خياله الساذج ، مدينة متراحة الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافها الشجر محملة ببيانع الثمر ، وعلى صفحة مائها المواج تهادى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللآلىء ، وينبعث منها شدو راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها رنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة الجنة إلا أن يعجل إلى خدينه يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :
 ما أجمل الجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . فى مكتبك أن تنالها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لى خدينه يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خيرالله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السفط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشبية السبك ، رفيعة القدر .

وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ،
تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهو بنفسه ، ويتناول بالألائه على
كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب
وفخار ، فما أسرع أن أزاع الصبي بصره ، يتشاغل عنه ،
وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المنديل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى
انثنى الرائد على أذن « الشيخ » يهمس إليه ، وهو يوميئ طوراً إلى
قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذي ما زال منكباً
على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هي إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبي النداء ،
ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على
محياء علام استحياء .

وصدع الشيخ « خير الله » يقول :

ارفع رأسك يا بني ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . .
من كانت أريحته هذه ، استحق موفور الشاء .

وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة : يطرى فيها صنيع ذلك الأريحي المفضال ، حاثاً أقرانه
أن يحذوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له
بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصّة ، وتفرق التلاميذ في فناء المدرسة يلعبون ،
وانبعث الحدين يتفقد صديقه ، فظفر به في ركن قصي .
ولم يكن مرحاً كعادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه في
جيب سرواله ، مطأطئ الرأس ، يركل الحصيات في حدة ،
وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الحدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى ،
مبهج الأسارير .

فغمغم الصبي يقول وهو على حاله :
اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .
— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبي هنيهة ثم انبعث فجأة يقول :
أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها
الولد من مال أبيه ؟

فعجب الحدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيثاً ، فجمعهم يقول :

لا تكتم عني ما في نفسك.. وأنا أستفتي لك شيخنا كما تريد .
ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبي بقوله :

لا تدهش . . . لقد سرقت اليوم . . . تم ذلك وأنا في
حجرة أبي على مألوف عادتي كل صباح ، أفتح كيس النقود
لأخذ منه مصروف يومي المقدّر . . . فما إن ثأب الكيس بين
يدي ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف في
أذني هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بي أن يكون
مني لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور . . .

تهيبت بادئ الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت
وطأتهما عليّ ، وألقيت يدي تنجذب إلى النقود تختطف قطعة
فضية رفيعة القدر . . . وهاجمني في ذلك الحين صوت أبي :
ماذا الذي أبطأ بك . . . ؟ أضللت مخبأ النقود ؟ . . . الكيس
أمامك بجوار المرأة . . . فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود في
جيبى ، ورددت الكيس مكانه ، وانصرفت عن الحجرة في تلصص
ومحاذرة ، أستجدي طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبي عن الكلام ، يحفف ما تفصد على جبينه

من عرق ، ثم جمعهم :

أسارق أنا . . . ؟ !

وكست الكآبة وجهه ، ، وخنقه النشيج .

ومال عليه الخدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتئس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت

وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبي في صوت خافض :

ما بالي لا أتصدق بمصروف يومي ؟ لقد أثمت فيما فعلت .

لن ينال الجنة سالب أثيم . . .

لم يمهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشثوم عليهما

الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى

الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبي حصّة الحساب ، وهو في قلقه ، يعاني

حساب الضمير ، فما أتقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن

الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب في تفكير محتم ، يستشعر

الضيق ، وكأنه يسير في طريق افترشته الأشواك ، تدمى قدميه .

وما لفظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ

في الشارع العريض ، جماعات في ضجيج ودوى . وتحلق نفر

منهم حول عربة لبائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها وينتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب
سؤال ، والبائع الهرم مقسم بينهم كالحلقة الدؤوب ، تستجيب
للطلبات في طوعية واستبشار .

وجذب الحدين صديقه يهمس إليه :

علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .

ووقف الصديقان حيال العربة ، تتناول أنظارهما إلى
ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما في زحمة الرفاق .

لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العربة وما حوت ، بل
هو زاخر بأشتات الحوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .
ومن قصاصد الشارع كومة بشرية ، هي امرأة ضريرة ،
مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كذب من جدار المدرسة
تتفياً ظله ، في أسمال بالية ، ترتل آى الذكر الحكيم ، في
صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت
رأسها ، متمائلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاوأت به
طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينها المطمستين ، سهاماً نفاذة ،
تصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتها طفلان في مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل
منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة في الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جور أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبي صنف جديد من الحلوى مثل له يتلألا في لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما فى جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزقة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأى آلاء ربكماتكذبان؟»

فوقف الصبي بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، واثب فى موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبي نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، فى خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الخدين من ذكرياته التى تراءى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهّاج .